به ليلا ويكمنون نهارا إلى أن أوصلوه إلى الزميج من القبيلة الأنجرية حيث ضريحه الآن .

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف .

الباب الثالث

فى ولادته ونشأته وطلبه للعلم وسلوكه الطريق ومجمل تاريخ حياته

ولد رضى الله عنه ليلة الجمعة ، خامس رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف بتجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية .

وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورش ؛ ثم شرع فى حفظه بالروايات السبع ، فقرأ ختمة برواية المكى على شقيقه سيدى احمد ، ثم شرع فى طلب العلم ببلده على اخيه العلامة البارع ، صاحب الأخلاق الحسنة سيدى محمد القاضى وعلى ابن عمه العلامة المحقق زين العابدين بن محمد المؤذن ، فأخذ عنهما بعض المبادىء ، ثم رحل به والده إلى فاس سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وألف .

وانزله بمدرسة الشراطين ، ولم يذهب به إلى زاوية اصحاب ابيه لينقطع للعلم ولا يشغله الفقراء عن طلبه ، فابتدأ يقرأ الآجرومية بشرح السوداني على أبى عبد الله محمد بن التهامى كنون وبعض الكتب الصغيرة على غيره فصعب عليه الأمر وصار لايدرى مايقوله الأساتذة فقابله يوماً رجل لايعرفه فقال له اعطنى سبعة ريال ولم تكن عنده فذهب فى الحال ورهن شرح عبد الباقى الزرقانى على مختصر خليل وأتاه بها وانصرف ثم بعد ذلك رأى فى ليلة كأن رجلا أتاه وقال له هات الكتاب الفلانى لكتاب سماه فأتاه به فصار يقرأه معه إلى أن أكمله أوقارب فلما انتبه وذهب للدرس وجد نفسه كأنه كان يقرأ منذ سنين وصار لايقرر الأستاذ معنى إلا أدركه فى الحال وكذلك إذا طالع هو وحده يفهم بسرعة من غير معين ولا مذاكر ، ثم حصل له مرض ألزمه الفراش ، فبينما هو

ذات يوم فى بيته من المدرسة إذ دخل عليه الشيخ الامام العارف القدوة بقية السلف الصالح القطب الربانى سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له أنا بفاس وأنت وحدك بالمدرسة هذا لايمكن قم معى ، فأخذه الى الزاوية وبر به وأكرمه غاية ، وأتاه بكل مايحتاجه من كتب وملابس ، وصار يخدمه بنفسه ، وكلف الفقراء أصحابه بخدمته أيضاً ومراعاته ، ثم صار يكتب له المتون فى لوح ويقول له إن حفظته أعطيتك ربع ريال فكان كلما حفظ لوحاً اعطاه إياه تحريضاً له على حفظ المتون فكتب له الخلاصة ومختصر خليل . وكان يقرأ معه ذلك فى الزاوية ويفهمه معنى المتن بطريق الاختصار ثم لقنه الورد وجرده لسلوك الطريق مع طلب العلم ، فكان يرتضع لبان الثديين فى آن واحد وقرأ معه ايضاً الحكم لابن عطاء الله والعهود المحمدية والمنن الكبرى للشعرانى ورسائل جده سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن والتنوير لابن عطاء الله وكان إذا مر بشىء صعب شديد سلوكه يقول له مر على هذا فقد انقضى زمانه يريد بذلك التيسير عليه والاشارة الى أن فتحه سيكون من باب الفضل والمنة لا من باب السلوك والمجاهدة وكان يرفق به غاية فلا يكلفه بما يكلف به غيره من الفقراء فكان يوقظ جميعهم قبل الفجر بنحو ساعتين ويتركه نائما قبيل الفجر بقليل حتى كان بعض الفقراء يغار منه . فكان الشيخ يقول لهم ابن الصديق من المحبوبين عند الله ، وأمره بالحضور على علماء القرويين وعين له من يقرأ عليهم لصلاحهم وبركة علمهم ثم لما كانت الزاوية بعيدة عن القرويين صار يصوم أيام القراءة حتى لا يرجع وسط النهار إلى الزاوية لتناول الطعام وأمره الشيخ أن يذكر الله جهراً فى شوارع فاس إذا نزل للدروس بعد أن وضع السبحة فى عنقه فثقل عليه ذلك الأمر غاية حتى كان يتمنى الموت وكان يخيل إليه أن حيطان فاس تنظر إليه وتسخر منه ومن صوته ولم يأمره شيخه بشىء أثقل على نفسه ولا أشد عليها من الذكر جهراً بالطريق ، لا سيما مع صغر سنه وطلبه للعلم فاستمر على ذلك نحو ثلاث سنين جمع الله له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتح

فى العلم الباطن ، ولم يحتج بعدها الى شيء ، وصار أعلم أهل عصره ومصره .

أما تفصيل قراءته فحضر على الشيخ الامام العلامة المحدث الصوفى أبى عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى فى مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق بشرحى الخرشى والزرقانى معا وسمع عليه موطأ مالك وبعض صحيح مسلم وقرأ عليه أيضاً جل الخلاصة بشرح المكودى ، ومقدمة جمع الجوامع لابن السبكى وكان لايفهم مايقرره الشيخ فيها كما ينبغى ، فسأله يوما شيخه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه هل تفهم الأصول فأجابه بالواقع فرأى تلك الليلة أو بعدها كأن العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه أتى اليه ولقنه ورد الطريق وأتى معه بشرح جمع الجوامع للمحلى ، وشرع يقرأه معه من أوله حتى ختمه

فلما استيقظ وجد نفسه يفهم الكتاب ولم يقرأ بعد ذلك الأصول وصار إماماً فيه يتقن أصوله وفروعه ويدرى جليه وخفيه ويناظر فيه كما أنه صار إماماً فى الفقه منقطع النظير فيه لا سيما الفقه المالكى فكان يحفظه كما يحفظ غيره متناً من متونه ويدريه كما يدرى غيره مسألة واحدة منه وذلك بسبب رؤيا رآها أيام طلبه وهى أنه رأى الامام مالكا رضى الله عنه فى قبة كبيرة عامرة بالكتب فلما دخل عليه ، قال له : ائتنى بكتاب من ركن القبة أقرأه معك فأتاه بكتاب ، فلما فتحه إذا هو المتبية فقرأه معه فحصلت له بركة تلك القراءة وكانت اشارة إلى أنه سيصل رتبة الامامة فيه حيث تلقاه عن إمام المذهب .

وحضر أيضاً على شيخ الجماعة الامام الصوفى أبى العباس سيدى أحمد ابن الخياط فى الخلاصة بشرح المكودى وصحيح البخارى بشرح القسطلانى والشمائل بشرح جسوس والهمزية والمرشد المعين .

وعلى العلامة الصالح سيدى الفاطمى الشرادى فى المختصر والخلاصة بتوضيح ابن هشام والمكودى معاً وفى مختصر السعد على التلخيص وتحفة

الحكام لابن عاصم إلا أنه لم يحضر من هذه إلا القليل .

وعلى العلامة محمد بنانى إمام جامع الديوان فى المختصر والخلاصة .

وعلى العلامة محمد جنيون بالتصغير فى المختصر بشرح الدردير وفى المطول بحواشيه وفى صحيح البخارى وشفاء القاضى عياض .

وعلى ولى الله تعالى صاحب الأحوال أبى العلاء إدريس عمور أوائل الخلاصة والسلم فى المنطق .

وعلى الشريف أحمد العلمى الاربعين النووية وأوائل رسالة العضد ورجز ابن كيران فى الاستعارة .

وعلى العلامة النحوى خليل الحشمى المعروف بسيبويه الخلاصة لابن مالك قراءة بحث وتحقيق .

وعلى العلامة الجليل الصوفى الوجيه السيد الكامل الامرانى مختصر خليل مجرداً عن الشروح ، بل كان يقرر المتن ويحله مع بعض أبحاث رائقة .

وعلى العلامة محمد بن التهامى كنون شرح الاجرومية للسودانى وكتاب الجمل للمجراد وقطعة كبيرة من الخلاصة وأوائل الشمائل بشرحه هو أعنى كنون وقطعة من الهمزية وجملة كبيرة من المختصر بشرح الخرشى .

وعلى الولى الصالح سيدى عبد الملك العلوى الضرير مختصر خليل بالخرشى من أوله إلى الوقت المختار وقطعة من شرح السنوسية ومبحث الفصاحة والبلاغة من شرح التلخيص .

وعلى فقيه المغرب ومفتيه سيدى المهدى الوزانى أبوابا من الخلاصة .

وعلى الفقيه أحمد بن الجيلانى لامية الافعال ، وقليلا من التصريح الازهرى .

وعلى العالم الجليل أحمد بن الطيب الفيلالى لامية الافعال أيضاً .

وعلى العلامة الشريف سيدى المأمون العراقى الخلاصة .

ثم رجع إلى وطنه فى ربيع الثانى من سنة خمس عشرة ثم عاد إلى فاس فلزم شيخه بالزاوية إلى سنة ثمان عشرة ثم نزل بسلام وعزم والده على تزويجه ببلده ، فاختار هو أن يأخذ بنت خاله الشريف البركة الصالح الذاكر الناسك سيدى عبدالحفيظ ابن عجيبة باشارة من شيخه ، وكان خاله يسكن مدينة طنجة فقصده لذلك الغرض فأجابه وشرط عليه السكنى بطنجة فكان ذلك هو السبب فى سكناها فتزوج بها واستوطنها ، وشرع فى تدريس العلم بها فقرأ الشمائل الترمذية ، ثم الآجرومية ، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودى ، ثم بعد ختمها افتتحها مرة أخرى بشرحى ابن هشام والمكودى معا . وقرأ لامية الافعال والسلم للاخضرى بشرح بنانى وهمزية البوصيرى والمرشد المعين ومختصر خليل بشرح الخرشى .

قال العبادى : كان القارى يسرد الخرشى بعد ما كان الشيخ يأتى بكلامه وتقرير جميع ما عند الاجاهرة وبنانى والرهونى تقريراً لو كان أصحاب تلك الكتب أحياء لاستفادوا من كلامهم ما لم يقصدوه من الفوائد زيادة على ما قصدوه وقرأ فرائض المختصر على حدة وصحيح البخارى ، وشرع فى التفسير فقرأ نصف الفاتحة فى شهر رمضان ، ثم لم يتيسر له العود اليه بسبب انقطاعه فى البيت وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصوفية مع الفقراء بتفسير جده للام سيدى أحمد بن عجيبة .

قال فى نبذة التحقيق : وكان إذا أنعم بدرس أو تهيأ لموعظة أو خطبة ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وأول خطبة ذاع فيها صيته خطبة خطبها بعيد شوال صدر العشرة الثالثة استنابه فيها على حين غفلة قاضى الوقت لغرض عرض فأملاها من حفظه فى نحو ساعتين وهى من خطب العلامة الرهونى ، إلا أنه أضاف اليها ما يناسب الوقت والحال وأطال فى

المجال مع أدعية بالغة ، وغير ذلك . فانبهر الحاضرون من سعة حفظه وعذوبة لفظه وتأثير وعظه .

ثم اشتهر أمره وصار الطلبة يلجأون إليه ويلحون عليه فساعدهم وفتح مرة صحيح البخارى فشاهدنا كغيرنا من أماليه ما بهر العامة والخاصة إلى آخر ماقال.

وانتفع بقراءته النـاس وتخرج عليه جماعة من أهل الحواضر والبوادى وكان فى تدريسه البركة الظاهرة يحضره الطالب زماناً يسيراً فيحصل له الفتح وينال الحظ الأكبر والنصيب الأوفر من ذلك العلم بل ومن غيره .

وكان الطالب إذا حضر عليه مرة لايستطيع أن ينتفع بغـيره ولا تقبل نفسه الجلوس على أحد بعده لكونه لايرى فى قراءتهم مارآه فى قراءة الشيخ من الفصاحة والحفظ وكثرة الاطلاع وشدة الاستحضار حتى أن بعضهم شد الرحلة إلى فاس ثم رجع وقال ان قراءة الشيخ أفسدتنا ولم تترك أحداً غيره يكبر فى عيننا وكذا قال غيره لما شاهد قراءة العلماء بالحرمين الشريفين .

أضف إلى هـذا رونقا يكسو مجلسه وأبهة تعلو منظره ودرسه لا توجد فى مجالس غيره ثم فى أوائل اشتهاره بالتدريس بطنجة تعرف إليه جمع من الأفاضل فكانوا يجالسونه كثيراً ويسمعون من فوايده ومـذكراته فى العلم والطريق وأخبار الأوليـاء والشيوخ ، فاشتاقت نفوسهم للأخذ عنه فلقنهم ورد الطريقة الشاذلية . ثم صاروا يجتمعون عليه وهم نفر قليل . وكان أكثر اجتماعهم بدكان الرجل الصالح سيدى محمد الجزيرى رحمه الله وكان يصنع فيه الأحذية . ثم لما كثروا صار يقعد معهم مجالس الذكر صباحاً ومساء بزاوية العارف بالله سـيدى محمد الحراق من طنجة ، وذلك أواخر سـنة اثنتين وعشرين .

قال فى النسمات وعند دخول سنة ثلاث وعشرين فاضت أسراره وظهرت

أنواره وأشرقت على الحواضر والبوادى شموسه وأقماره وكسيت البلد بظهوره حلة الأنس والفرح كما لبست عند موته ثوب البؤس والحزن والترح فتوارد الناس لأخذ الطريق عنه رجالا ونساء وانجذبت القلوب إلى الله بهمته وارتفعت همم من سبقت لهم العناية عن حضيض الكون وخسته. صار جل من فى البلد يلهج بذكر الله وانقلب حاله من الغفلة الى اليقظة وتعلق قلبه بالله، ذلك كله غيبا بنفوذ همته وقوة حاله من غير أن يدعو أحداً لأخذ الطريق عنه والانتساب إليه وفى هذه السنة أضاف إلى مجلس الذكر المذاكرة مع الفقراء فى مقامات الطريق وآداب السلوك . وكانت على غاية ما يكون من الأبهة والأدب والسكينة والوقار والخشوع وفيضان الأنوار حتى كأن الفقراء الحاضرين على رؤوسهم الطير من قوة حاله ، وعظيم هيبته ، وطيب أنفاسه .

وكانت أنواره تسبق كلامه ، وترتاح الأرواح لسماعه من غير ملل ولا سآمة ، وأخذ بمجامع القلوب . وكان كله فى الحض على اتباع الشريعة والعمل بالسنة ، والتعلق بالأخلاق النبوية ، والتحقق بها حالا ومقالا وعلما وعملا .

وكان شديد الغيرة ، والتستر على الحقائق والاسرار فلا يفشيها ولا يذكر منها إلا القدر المباح كما كان عليه أستاذه .

وكان يقول : لا ينبغى للمريد فى بدايته أن يشتغل بمطالعة كتب الحقائق والأسرار ، كسكتب الحاتمى والجيلى وأمثالها من كتب الوحدة ، فان ذلك مما يوقف المريد ويمنعه الوصول إلى المقصود ، لأن الحقائق والاسرار لا يتوصل اليها من الكتب ومطالعة الدفاتر ، وانما تدرك بالعمل والمجاهدة وصحبة الأشياخ .

فمن عمر أوقاته بالطاعات والاذكار مع امتثال أوامر الشيخ وإرشاده فى ذلك نبعت منه الحقائق ، وتفجرت من قلبه عيون الاسرار من غير مطالعة كتاب .

وقرأ مع الفقراء رسائل جده القطب سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن ثم رسائل شيخه القطب الاكبر مولاى العربى الدرقاوى مرتين بمذكراته النافعة ، وإشاراته الجامعة ، ثم العهود للعارف الشعرانى ، ثم المباحث الاصلية لابن البنا بشرح ابن عجيبة ، ثم الحكم العطائية بشرحه أيضاً . وأعادها بشرح ابن عباد ، ثم جملة من تفسير ابن عجيبة ، ثم بعد إقامته بالزاوية الحراقية نحو أربعة أعوام بنى زاويته الكبيرة التى دفن بها وانتقل اليها .

وكان السبب فى ذلك بكرامة من كراماته .

وكان فى أول قدومه إلى طنجة وشروعه فى التدريس ، ابتدأ يخطب بالزاوية الناصرية . فوقع الاقبال على خطبه كما وقع على دروسه .

قال فى النسمات . وكانت خطبه بليغة كثيرة النفع ، شديدة التأثير ، يحض فيها على اتباع الكتاب والسنة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يرهب بطش جبار ولا سطوة حاكم . بل كان يقول الحق وان كان مرا ، ويدور معه دوران من هو معتمد على الله سراً وجهراً فوقعت له بسبب ذلك وقائع هائلة وقضايا هامة .

منها : أن الفرنسيين قبل احتلالهم المغرب كانوا أرسلوا بعض الشياطين من أذنابهم إلى طنجة ، ففتحوا بها مدرسة لتعليم الاولاد اللغة الفرنسية توصلا بذلك إلى ما بعده . فسارع بعض المغرورين الراغبين فى الدنيا إلى إدخال أولادهم فيها ، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم مدارس النصارى ، وبين ضرر ذلك فى الدين ، وما يترتب عليه من المفاسد فى الاعتقاد والاخلاق ومصالح البلاد وبالغ فى ذلك ، وأطنب وأطال ، فأثرت خطبته فى الناس . وسارع جل من أدخل أولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها ، فاغتاظ لذلك سفير فرنسا ، واحتد غضبا ، لانها أول بذرة بذروها فى المغرب لحصد الشر والفساد منه ،

فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته ، فأرسل إلى الباشا وهو حاكم المدينة يأمره بعزل الشيخ من الخطبة ، ويتوعده بما لا تحمد عقباه ان لم يفعل ، فداخله رعب شديد ، وكانت فرنسا اذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب ، فأرسل الباشا بعض أعوانه الى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه فى ذلك ، فلم يصل الى الشيخ حتى شاع الخبر فى الناس بأسرع من لمح البصر . فاجتمعوا وتوجهوا الى الباشا والشيخ معهم . فلما وصلوا الى المحكمة شرعوا فى قراءة سورة الفتح بلسان واحد . رافعين بها أصواتهم . فارتجت المحكمة ودهش الباشا ، وبقى فى انتظارهم الى أن ختموا السورة ، فقال ما مرادكم . فقالوا ان يبقى الشيخ على حاله ولا يعزل من الخطابة وطلب فرنسا لذلك تدخل منها فيما ليس هو من شأنها ، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه فأجابهم بالموافقة ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما ألزمه به السفير المذكور وما توعده به مع ما عنده من أوامر السلطان بمراعاة سفراء الدول ، وبالغ فى الاعتذار فقبل الشيخ عذره ، وانصرف مكرماً معززاً مستمرا على خطابته الى ان تركها بعد ذلك باختياره . فكانت هذه القضية أول حجر فى أساس الخلاف بين الشيخ وفرنسا .

ثم بعد ذلك حصلت قضية أشد من هذه فى شأن أمة للشيخ ، تعلقت بعلم فرنسا للتوصل الى بعض اغراضها الفاسدة . وارسل سفير فرنسا الى نائب السلطان يأمره باجبار الشيخ على عتقها لتعلقها بعلم فرنسا فامتنع من ذلك فى قصة طويلة كانت من اعظم الاسباب فى ازدياد حقد فرنسا على الشيخ رضى الله عنه ، وكانت قضية الامة عجيبة لا تخلو من حكمة مقصودة للشيخ رضى الله عنه فانه كان لا يلتفت الى مثل هذه الاشياء ، ولا يشدد فى ملك جارية ولاغيرها . بل لو كانت الدنيا كلها ما وقف لأجلها ذلك الموقف ولا أمر بالقبض عليها إلا انه اراد تبكيت فرنسا وتعريفها انه لا يعتبرها ولا ما كان من جهتها .

ثم بعد هـذه القصة المشروحة فى الأصـل تتابعت قضايا الخـلاف بين الشيخ وفرنسا إلى أن بلغ الأمر منتهاه بعد احتلالها المغرب .

واشتهر الشيخ بين جميـع رجالها بالمغرب وحكامها فيه انه العـدو اللدود لفرنسا . فسلـكوا معـه كل المسالك وأطمعوه بالأموال والمرتبات وتنفيذ الـكلمة . والمساعدة على نشر طريقه فى سائر أنحاء المغرب ، وغـير ذلك ، كما فعلوا بغيره . فلم يزده ذلك إلا عداوة لهم وتباعدا منهم إلى أن لقى الله تعالى وهو على ذلك .

ثم لمـا أيسوا من ميـله شرعوا يحاربونه فى أصحابه وأتباعـه بالمغرب ، ويعاكسونه فى كل ما آربه ، ويقفون فى وجه مقاصـده لاخوانه وأصحابه ، لا لنفسه ، فانه لم يكن له مقصد من الدنيا أصـلا كل ذلك والحق سـبحانه وتعالى يناقض مقصودهم ، ويهيء للشيخ كل ما يريد ، ويقضى حوائج كل من يتعلق به على يدهم أيضا فى حال عـداوتهم الشديدة إياه ، والله غالب

فصـــــل

وفى سنة تسع وعشرين توجه الشيخ بأهله وجماعة من أصحابه ، وهم تسعة وعشرون نفسا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومر بطريقه على الجزائر فزار بها ضريح ولى الله تعالى سيدى عبد الرحمن الثعالبي . ثم لمـا وصل الى بور سعيد امتنع المصريون من انزاله الى قطرهم كما هى عادتهم مع الحجاج ، فاضطر الى الذهاب فى البابور الذى كان فيه الى اليمن ، فنزل بمرسى عـدن ، وأقام بهـا تسعة أيام ، ثم توجه منها الى مصوع من بلاد الحبشة ، فأقام بهـا ثمـانية عشر يوما أكرمه فيها أعيان البلد ووجهاؤها غاية الاكرام . وكانوا يترددون اليه للزيارة والتبرك والانتفاع بالمجالسة والمذاكرة ، وقضى بها عيد

الفطر ثم بعده بأيام توجه الى جدة . ومنها الى مكة المكرمة ، وكان وصوله اليها بعد منتصف شوال بقليل . فأقام بها نحو شهرين كانت كلها مواسم وأعيادا عامرة بأنواع الطاعات والمسرات . يجتمع اليه فضلاء الحرم وعلماؤه وشيوخه فتمضى مجالسه معهم كأنها رياض مونقة يقتطف منها أزهار العلوم والمعارف وأنوار الفوائد واللطائف .

وكان فى تلك الأيام يتظاهر بمزيد العبودية ، والتواضع ، والقناعة والتقشف ، والاقتصاد فى المأكل والملبس ، ويحث الفقراء على ذلك ويحذرهم من التوسع ، وتناول الشهوات ، ويقول لهم : هذه الأماكن الشريفة لا يليق فيها الا الذل والتواضع لله تعالى . ومن تمام ذلك التقليل من الشهوات والزهد فى الملذوذات ان كان المرء يريد قبول الحج والحصول على ثمرته والا فهو مجرد فسحة وسياحة ونزهة . بل ينبغى لطالب الآخرة والراغب فى رضى الله تعالى أن ينفق ما معه على فقراء الحرمين وأشرافهما وعلمائهما عوضا عما سينفقه فى شهواته وأغراضه . وكذلك كان هو رضى الله عنه لا هم له الا التصدق والمواساة وصلة العلماء والاشراف وأهل الخير والصلاح .

وكان لا يتظاهر بعلم ولا مشيخة ولا مافيه رائحة تقدم وظهور . ولما طلب منه اهل مكة أن يلقى دروسا فى المسجد الحرام وأهل المدينة أن يلقى دروسا فى الحرم النبوى امتنع من ذلك ، وقال : كل ما ينسب الينا من العلم والصلاح تركناه فى بلدنا ، وخرجنا منها متبرئين من علمنا وعملنا ، مفتقرين الى الله ، راجين فضله وعطفة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وقفة عرفة تلك السنة يوم الجمعة التى ورد فضل الوقوف بها على سائر الأيام . ولما كان بعرفة وقف فى موضع مخصوص وأخبر الفقراء من باب الكشف : انه الموضع الذى وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا الموضع الذى يقف به الامام ويظن الناس أنه موضع وقوف رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وفى يوم الأضحى اجتمع الشيخ وأصحابه بشيخه ، وشيخنا الامام العلامة الصوفى سيدى محمد بن جعفر الكتانى إذ قدم من المدينة المنورة للوقوف بعرفة . وكان الجمع حافلا ، مشتملا على جماعة من العلماء والفضلاء والفقراء الصوفية والمنشدين . فشرعوا فى الانشاد ، فطاب الوقت ورقت القلوب . وقام الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى متواجدا وقام الشيخ رضى الله عنه ، فقام الحاضرون كلهم وتواجدوا بذكر الله تعالى والفرح به ، فكانت ساعة من أبرك الساعات .

ثم فى أواخر الحجة توجه إلى المدينة المنورة ، فهل عليه هلال المحرم ، فاتح سنة ثلاثين قبل وصوله إلى المدينة بمرحلتين . ولما بلغ المكان الذى تظهر منه قبة النبى صلى الله عليه وسلم لم يملك حاله . فرفع صوته بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، وصار يستشفع به الى الله تعالى أن يمنحه كمال الأدب معه صلى الله عليه وسلم ومع جواره وسكان مدينته المنورة . وكان ذلك منه رضى الله عنه بحال قوى ، فسرى فى الحاضرين كلهم . فرقت قلوبهم وذرفت عيونهم .

ثم لما دخل إلى المدينة بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى البقيع . فلما وصل اليه خلع نعله . فخلع الناس نعالهم . فزار من به من آل البيت الأطهار والصحابة والفضلاء الأخيار . ثم رجع وأقام بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر كانت من أبرك الأوقات وأطيبها عامرة بأنواع الطاعات والاجتماع بأفاضل الوقت وعلمائه فى المذاكرة بأنواع العلوم . وكان أكثر ذلك بحضور شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى ، وغالبها بمنزله . وأقبل عليه علماء المدينة ، ومن كان بها من علماء الأقطار وفرحوا به ، وأجلوه وأعظموا منزلته السامية . فى العلم ، والحفظ ، والاطلاع ، والتبحر فى سائر الفنون . فكانوا يجتمعون به فى أغلب الأوقات ، وبكل المناسبات ، وعملوا له ولائم

وعزومات . ثم فى أواخر ربيع الأول غادر المدينة ، متوجها إلى الشام . وفى اليوم الثانى لقدومه . شاع خبره بين العلماء والأفاضل . فسارعوا إلى زيارته والاجتماع به ، وأكثروا من استدعائه إلى منازلهم مع أصحابه وأتباعه . وانتفعوا بمذاكراته وأحبوه ومالوا اليه . وكان كثير منهم لا يفارقونه .

ثم بعد مدة توجه إلى بيروت ، وفى اليوم الثانى من دخوله شاع خبره بين أهلها أيضا ، فجاؤا لزيارته وفى مقدمتهم العلامة الشهير . صاحب المؤلفات الكثيرة فى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ يوسف النبهانى . فزاره وتبرك به ثم توجه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوماً اشترى بها كثيرا من الكتب ، وزار ضواريح آل البيت والأولياء المشاهير وشد الرحلة إلى طنطا لزيارة القطب سيدى أحمد البدوى . وتعرف اليه شيوخ الأزهر وعلماؤه ، وفى مقدمتهم عالم الديار المصرية الشيخ محمد بخيت رحمه الله فأحبه كثيرا وأجله . واعتقد فضله ، وصار بعد ذلك يحبه ويذكره فى المجالس والمحافل .

ووقع للشيخ مع بعضهم مناظرات فى مسائل علمية وأحوال خالفوا فيها السنة والشريعة كحلق اللحى وشرب الدخان والملابس الافرنجية .

وكان يقول فى حق أهل مصر : ان هؤلاء القوم كادوا يرجعون الى قبطيتهم الأولى ولم يبق لهم من الاسلام إلا الأسماء واللغة العربية . ثم توجه راجعا إلى المغرب من طريق بورسعيد ، فلم يتهيأ له الركوب ، فأقام به نحو شهر فى انتظار ورود الباپور ولد له فيه مولود ، سماه محمد الزمزمى ، وذلك يوم الأربعاء ، خامس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين . وفى الشهر الذى بعده وصل إلى طنجة .

فصـــل

ووافق عنـد رجوعه من الحجاز أن تمت المعاهـدة بين السلطان عبد الحفيظ ودولة فرنسا على احتلال المغرب بعـد أن سبق احتـلال بعض مدنه قبل ذلك ، فلما أمضى معهم الاتفاق على ذلك تنازل عن الملك لأخيـه يوسف ، ثم توجه الى الحجاز . فلما وصل الى المدينـة المنورة أظهر التـوبة والانابة ، وأكثر من الصدقات والبر بأهل المدينة . وكان يتظاهر قبل ذلك بمحبة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الـكتانى وتعظيمه ، فأتى اليـه وأظهر له من الأدب والتواضع ما غره به ، لسلامة نيته وحسن طويتـه . فأقبل عليه وأكرمه ، وجعله من خاصة أصحابه .

ثم لمـا عزم عبدالحفيظ على الرجوع الى المغرب طلب من الشيخ المذكور أن يرشده إلى عالم يقتـدى به ويهتدى بهـديه ، ويعول فى أمور دينه عليه ، فأرشده الى الشيخ رضى الله عنه ، وقال له ليس بالمغرب اليوم مثله . لا سيما وهو بطنجة التى اختار عبـد الحفيظ الاقامة بها . ثم كتب سيدى محمد بن جعفر رضى الله عنه الى الشيخ كتاباً قال فيه .

أما بعد : فموجبه تجديد العهد بكم والسؤال عن أحوالـكم أدامها المولى سبحانه على وفق مرادكم واعلامكم بأن سلطان مغربنا الشريف العلامة . مولاى عبد الحفيظ بعد مازار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واستسلم اليه وانقاد بين يديه متضرعا خاضعا وجمعنا الله سبحانه وتعالى به جرى ذكركم بما نعلمه منكم فاشتاق اليكم ، وأحب أن يكون له اجتماع بكم واخوة مع جنابكم ، وارشاد منـكم إلى مافيه الصـلاح لدينه والنجح فى أخراه ، وعليه فنحب منكم ، بارك الله فيكم أن تعملوا على ذلك ، وتقبلوا اخوته ، وتعاملوه معاملة أخص إخوانكم اليكم محبة وارشادا ونصحا ، ولاتقصروا فى ذلك ، والله

تجازيكم ، وقد أعلن فى هـذه الحجة بمـا اعلن به الأوابون . ثبتنا الله وإياه على ذلك وقوانا على العمل به وعلى محبتـكم الخ . وهو مؤرخ بيوم الأربعاء تاسع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمـائة وألف .

فلما وصل الـكتاب الى الشيـخ قدس سره . قال غره عبد الحفيظ بظاهر حاله . ثم كتب جوابا له وعرفه بشرح حاله وحقيقة أمره . وأن ما تظاهر به من التوبة والانابة . هو مجرد صورة لا حقيقة لهـا . ثم لمـا قدم الى طنجة أرسل الى الشيـخ مع الشريف الصالح سيدى المأمون البلغيثى . وكان مجاورا بالمدينة المنورة . فأنزله عبـد الحفيظ معه الى المغرب . ولـكنه رجع بعـد ذلك اليها . فلما أتى الى الشيـخ وأخبره بأن السلطان يريد الاجـتماع به امتنع من ذلك كل الامتناع . فلما رجع اليـه وأخبره بامتناع الشيخ أراد أن يغريه بالمـال . فأرسل اليه أربعة آلاف ريال مع الشريف المـذكور ، فردها اليه . وصمم على عدم الاجتماع . فرجع اليه بالمـال فرده ثالثا ، ووعد بالزيادة وأمره أن يسلك معه كل مسلك ويتوسل اليه بكل وسيلة . فصار الشريف يتردد الى الشيخ فى شأن هذه المقابلة كل يوم ، ويتوسل اليه بشرفه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستعطفه بكل ما فى وسعه والشيخ مصر على الامتناع . ثم سأل عبد الحفيظ بعض الواردين عليه من أهل البـلد عمن يحترمه الشيخ ويستحيي منه . فأرشده الى بعض الفقهاء . وكان الشيخ يحبه ويجله . فأرسل اليه وأعطاه أربعة آلاف ريال وطلب منه أن يتوسط له عند الشيخ فى الاجتماع به . فجاء اليه . ومكث معه من الضحى الى الظهر . وهو يحاول من الشيـخ المساعدة فلم يجبه اليها ، وقال له لا أجتمع بمن سلم المغرب الى فرنسا ، وقتل سيدى محمد بن عبد الـكبير الـكتانى ظلما ولو فعل ما فعل ثم تعلق بغيرهما أيضا فلم يفلح . فلما أيس من الوسائط أرسل اليـه يوما مع الشريف البلغيثى يقول : إننى سأقدم غـدا الى منزلك ، فاذا وصلت الى باب دارك ، وظهر لك أن تطردنى فافعـل . فأرسل الشيـخ فى الحال الى بعض

تلامذته ممن كان متصدرا عنده للاستشارة وأخبره الخبر ، وأمره أن يصرفه عنه وعرفه بأنه لا يقابله أصلا ، فأمر أربعة من أصحاب الشيخ أن يلزموا باب الدار بعصيهم ليردوه اذا جاء بالقوة . ثم ذهب إلى بعض من كان متصلا بعبد الحفيظ ، وقال له اذهب اليه ، وقل له : ان الفقراء مجتمعون بباب دار الشيخ ليمنعوه من الوصول اليه . وعليه فالواجب أن يتأخر عن التوجه اليه خوفا من وقوع مالا يحمد . فلما بلغه الرسول ذلك أيس مرة واحدة وأرسل الى الشيخ يقول له : انك لست أفضل من عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنا لست شرا من الحجاج بن يوسف الثقفى . وقد كان عبد الله بن عمر يجتمع به . فقال الشيخ للرسول ان عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان عنده من الفضل وقوة الحال برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته مايحمى دينه من التأثر بالاجتماع بالحجاج وأنا ضعيف الحال ، أخاف على دينى أن يتأثر ويضعف بسبب الاجتماع به وهكذا صرفه الله عنه ، فلم يجتمع به . ثم بعد هذا بنحو سنة وقعت الحرب العظمى وحصل لعبد الحفيظ ما أوجب سفره الى أسبانيا . فلما وصل اليها اتصل به سفير دولة ألمانيا التى كانت فى حاجة الى من يثير الحرب على فرنسا فى المغرب وطلب منه بصفته كان ملك المغرب وقد انتزع الملك من يده أن يحارب فرنسا ليعود الى ملكه ، وأن دولته مستعدة للمساعدة على ذلك بالمال والسلاح ، فأظهر رغبته فى ذلك ، ولم يكن قصده فى الواقع الا أن يبتز منهم الأموال ليصرفها فى شهواته ويبذرها فى ملذاته ، لكنه رأى أن ذلك لا يتم الا بالشروع فى العمل ، ولم يرمن يصلح لذلك ويقوم به الا الشيخ رضى الله عنه . فأرسل الى وكيله بطنجة ، وهو عبد الهادى السلاوى وأمره أن يذهب الى الشيخ ويصحب معه الجزء الأخير من صحيح البخارى . ويتوسل اليه بالنبى صلى الله عليه وسلم وبرجال ذلك الجزء فى أن يرضى عنه ، ويقبل معاملته فى شأن القيام على فرنسا ومحاربتها ، وعرفه بأن دولة ألمانيا هى التى ستتولى المساعدة بالمال والسلاح

على ذلك ، فأجابه الشيخ لما علم أن الأمر متعلق بالدين ، وأنها دعوة واجب تلبيتها والخوض فيها إلا أنه لعدم تحققه من الأمر والنتيجة كلف بذلك ابن أخيه الشريف سيدى الغالى بن أحمد بن الصديق . وكان الألمان قد اتصلوا أيضا بعبد الملك بن الأمير عبد القادر محيى الدين وطلبوا منه القيام أيضا ، وأمدوه بالمال وواعدوه بالسلاح . فاتصل بالشيخ رضى الله عنه وطلب منه المعونة والمساعدة . فأجابه الى ذلك ، وأمر ابن أخيه أن يذهب اليه ويتفقا معا على الأمر . فاستمرا على ذلك مدة الى أن هيئا شئون الخروج ، وخرجا معا . ووقعت لهما قضايا غريبة وألقى القبض عليهما بقبيلة أنجره . وصارت فرنسا ترسل إلى بعض زعماء القبائل الجبلية وتعده بأموال تطيرلها الباب أمثاله ان هو سلم اليها المذكورين ، وكتب له الشيخ يأمره باطلاق سراحهما .

وأرسل الى بعض أهل القبائل الغمارية فنزلوا وتدخلوا فى القضية ، وسلم الله أمر الرجلين بعد أن كانا بين مخالب الموت .

ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية . وقاما بالدعوة إلى الجهاد وشرعا فيه مدة الحرب بتمامها الى أن وقعت الهدنة . واستشهد ابن أخى الشيخ المذكور .

ولما شرعا فى القتال عزم الشيخ على السفر من طنجة الى غمارة . وكان والده قد توفى قبل ذلك بنحو سنتين أو ثلاث . وبقى أمر الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفا على حضوره . فأراد إنهاء مسألته مع النظر فى بعض مصالح تلك القبائل وامكان اتصالها بمساعدة المحاربين .

فلما علم الفرنسيون بذلك أرسلوا يطلبون منه التأخر عن السفر لمناسبة الحال الحاضرة خوفا ان يلتحق بالمحاربين ويقع الاجتماع العظيم لاقبال الخلق عليه . فامتنع من التأخر ، وأصر على السفر . فالتجأوا الى القوة وفرقوا البوليس فى ضواحى المدينة وأحدثوا لهم مواضع خاصة لم تكن من قبل

جعلوها على جميع الطرق المؤدية الى جهة تطوان لكونها طريق غمارة وعرفوا الشيخ بأنهم سيستعملون القوة ان خرج بغير إذنهم ، فأصر على المخالفة لأمرهم وتنفيذ ما أراد . فصار الفقراء يشترون السلاح ويعدون العدة ليوم خروج الشيخ حتى يقابلوا البوليس بالقوة ان تعرضوا للشيخ .

فلما رأى الفرنسيون تفاحش الأمر أرسلوا من الرباط الوزير عبد القادر ابن غبريط . وكان له معرفة بالشيخ أيام إقامته بطنجة ليكلمه فى التأخر عن السفر ويستميله الى فرنسا والرضوخ لها ويعده ويمنيه بكل ما يريده ، فلم ينجع فيه شيء من ذلك ، والحالة كل يوم تزداد خطورة ، وصارت تحصل قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراء مع البوليس والشرط وأعوان الحكومة بما يطول شرحه .

ثم لما لم يجدوا بدا من مساعدته أرسلوا اليه يقولون : ان أمرك قد رفع إلى السلطان . ولم يبق لحكام طنجة فيه تدخل سوى تنفيذ أمر السلطان ، وأثناء ذلك ورد عليه مكتوب من الوزير محمد الجباص . قال فيه :

وبعد : فقد بلغ لجناب المخزن أعزه الله أنكم تريدون السفر من هنا كم لقضاء بعض أغراضكم الشخصية بهاتيكم القبائل الجبلية . وهذا أمر لا بأس به . لو كان فى غير هذه الظروف الوقتية حيث إن الانسان لا يخلو من أعداء كما أنه لا يخلو من أصدقاء . فكما أن أصدقاءه يلاحظون حركاته بعين الصفاء والاحترام فكذلك أعداؤه يراقبون أعماله وينسبون اليه ما لم يكن له به إلمام ، على أن المخزن والحمد لله يعتقد فيكم الخير والصلاح ويبرى جانبكم من الخوض فى هذه الأعراض الدنيوية الحائدة عن مهيع الفلاح لما يبلغه عنكم دائما من إرشاد الخليقة والاعراض عما سوى الاشتغال بوحدة الحقيقة ، ولذلك لم يرتض المخزن الشريف تحركاتكم فى هذه الظروف الحاضرة ، ويختار سكونكم بمحلكم لما فيه من مصالحكم الظاهرة والباطنة ريثما تنقشع هذه

السحابة الصيفية التى لا تمكث طويلا ، ولا تستلزم من الصبر الا قليلا . وحينئذ تتمكنون من السفر معززين بالأوامر المخزنية ، معتمدين على الله سبحانه وعليها فى قضاء أغراضكم حاضرة وبادية .

وأما الآن فلا يخفاكم ما يترتب على ذلك من القيل والقال ، وما يمكن أن ينسب لكم مما يعلم جانب المخزن انكم برآء منه . بل لا يخطر لكم ببال كما لا يخفاكم ما هو وارد شرعاً فى الحث على السكينة ، والمحافظة على تعميم الراحة بكل ما أمكن . نعم إن كانت لكم أسباب أوجبت عليكم السفر من ذلك الثغر المحوط فبينوها لجناب المخزن بمزيد ثقة وجميل اعتقاد ، إما رأساً . وإما بواسطة النائب المخزنى لينظر فيها ويجابون عنها بما يرضيكم ويسركم بحول الله .

هذا وقد أبلغنا لجنابكم المحترم أوامر مولانا الشريفة . راجين ورود جوابكم بما يحقق لمولانا أيده الله ما أديناه فى جنابكم من الشهادة بما نعلمه من صلاح أحوالكم وصفاء طويتكم وحسن مساعيكم الخيرية ، محتسبين على الله ثوابها الجسيم فى دار النعيم ، وعلى ما تعهدونه من المحبة الأكيدة ، والسلام . فى عشرى رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف . فأجابه الشيخ وذكر له أسباب سفره التى أشرنا اليها . فورد عليه كتاب الاذن بالسفر ، وهم إنما فعلوا ذلك سترا للحالة ، لئلا يخرج الشيخ قهرا عنهم وتسقط منزلتهم بين الناس . ونص الكتاب : محبنا الأعز الأرضى الشريف الأجل الفقيه المرشد البركة « سيدى محمد بن الصديق » رعاكم الله ، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . عن خير مولانا نصره الله .

وبعد : وصلنا جوابكم عما كتبناه لكم عن الأمر الشريف ، أسماه الله فى شأن تأخركم عن السفر من طنجة . مراعاة لهذه الظروف الحاضرة . وعلمنا ما أبديتموه من الأسباب الموجبة لسفركم . وأنهيناها لمولانا أيده الله . واستعطفنا جنابه الشريف فى إجابتكم لمطلبكم لما نعلمه فيكم من الصدق

فى القول والعمل ، وكون مثلكم يتحاشى عن التلبس بما توهم فى جنابكم

وقد قبل مولانا أيده الله أعذاركم وساعدكم أعزه الله على السفر لقضاء وطركم ، فتوجهوا على بركة الله مصحوبين بالسلامة والعافية . ولا نحتاج الى تنبيه جنابكم على استعمال ما يمكنكم فى تسكين الروع بهاتيك الجهة الجبلية ، وحض الناس على لزوم الطاعة والطمأنينة ، ووعظهم بما ورد فى السنة فيمن يوقظ نار الفتن عسى الله أن يهديهم على يدكم المباركة لما فيه من صلاحهم وصلاح بلادهم ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وعلى المحبة والسلام فى تاسع شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فسافر الشيخ إلى غمارة ، ومكث بها ثمانية أشهر ، عالج فيها القضية بعد أن اجتمعت اليه تلك القبائل . وكان زعماؤها يردون عليه كل يوم ، فعرف أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأنه لا مرد لقضاء الله . فرجع ونزل معه نحو الف وستمائة رجل الى ناحية تطوان لينهى لهم القضية مع حكام الأسبان فقابل المندوب السامى وكلمه فى شأن مصالح تلك البلاد ، ثم خرج راجعا الى طنجة عن طريق القبيلة الانجرية .

ولما كان بها واجتمع اليه أهلها خاف من ذلك بعض من كان متصدرا للزعامة ، طامعا فى نيل المملكة ، فدس اليه من يقتله ، وهما رجلان من أهل القبيلة العروسية ، فافتضحا وألقى الفقراء القبض على أحدهما . وهرب الآخر . وأمر الشيخ بالعفو عن المقبوض فأطلق سراحه . ثم دخل الشيخ الى طنجة ، وبعد الاستراحة شرع فى قراءة صحيح البخارى ، وصار يتعرض للجهاد والحث عليه ويذكر فرنسا فيسبها ويدعو عليها بالهلاك والدمار ، والحكام حاضرون فى درسه ، وكل ما يقوله يصل الى الفرنسيين بواسطة جواسيسهم فيحاولون منعه من ذلك ، فلا يجدون اليه سبيلا ، ثم كثر الخلاف والنزاع

والمناوشات بين الفقراء اصحاب الشيخ وبين الحكومة وأعوانها ، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراء إرادة فرنسا وحكامها . فانتصروا عليها . وكانوا دائما يحصلون مقصودهم بفوات مقصود الحكومة وإرادتها وكان ينتصر لفرنسا ، ويبالغ فى إرضائها حاكم طنجة إذ ذاك عبد السلام بن عبد الصادق . فلما طال الأمر وكثر الخلاف أراد أن يظهر النصح التام ، ويقدم الخدمة الجليلة ليتوصل فى نظره الى مرتبة أعلا مما هو فيه . وكان يطمع فى ترقيته إلى نائب السلطان ، فصادف أن وقعت قضية لبعض الاشراف الكتانيين المنتمين الى الشيخ رضى الله عنه مع قاضى طنجة وقتئذ الفقيه علال الهرابلى الفاسى . ولطمه فى محكمته ، فألقى الحاكم المذكور القبض على الشريف الكتانى ، وتوهم أن الفقراء سيتعرضون له فى شأنه فأوحى اليه ظلمه وبغضه للشيخ والفقراء أن يعاجلهم بمكيدة ظن أنها ستنفعه فى تشتيت شملهم وتمكن فرنسا من نفيهم وتشريدهم . فأرسل الى جميع أعيان البلد ، ولم يغادر منهم أحداً . فلما اجتمعوا بمسجد القصبة القريب من المحكمة أخرج لهم عريضة ، يريد تقديمها للسلطان ، ضمنها شكاية أهل البلد بالشيخ والفقراء ، ونسبوا اليهم عدة مضرات واعتداءآت وتشويشات للأمن والراحة ، وطلب من الجميع أن يوافقوا عليها بانزال خطوطهم فى العريضة ، ووافق ذلك هوى فى نفوسهم ، فكانوا أطوع له من بنانه .

ثم وجه الكتاب المذكور إلى السلطان وبقى فى انتظار ورود النتيجة فلم يظهر ما يمس جانب الشيخ والفقراء بكلمة واحدة ولكن ظهرت النتيجة فى القائد وأهل طنجة . فعاجلهم الله بعقوبته وسلبهم ما كانوا فيه من العز والجاه ، وسلط عليهم الذل والمهانة والفقر والاضطرار والحاجة ، وسقطوا من عين الناس ومن عين فرنسا التى أرادوا إرضاءها بفعلتهم الشنيعة .

وأما القائد المذكور فأوقعه الله فى نفس الحفرة التى حفرها لينفى الشيخ

والفقراء . فأخرج من بلده ووطنه عقب ذلك بقليل وصار متغربا فى نواحى الدار البيضاء ، وخربت أملاكه بطنجة ، وانقرض منها ذكره وشتت شمله . وجمع الله شمل الشيخ والفقراء ، ولم يصب أحد منهم بسوء ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما صدرت هذه الفعلة الشنيعة من أهل طنجة دخل الشيخ رضى الله عنه داره ولزم بيته ، وقطع التدريس والخروج الى الزاوية ، وقال كانت على ظهرنا أحمال وأثقال لأهل طنجة ، والآن قد أنزلناها واسترحنا من ثقلها .

وقال أيضاً : كنا نريد لأهل طنجة العز والرفعة بين الناس فأبوا الا الذل والمهانة فليفعلوا ماشاءوا . وبقى فى بيته من سنة سبع وثلاثين إلى أن توفاه الله تعالى سنة أربع وخمسين لم يخرج فيها إلا مرات معدودة .

منها : سفره الى القاهرة سنة خمس وأربعين لحضور مؤتمر الخلافة إذ استدعاه المصريون ، وألحوا عليه فى الحضور بمكاتب متعددة . فرأى أن إجابة دعوتهم واجبة لوجوب نصب الخليفة . وكان يرجو حصول فائدة للاسلام من ذلك الاجتماع .

فلما حضر المؤتمر وجد القوم يلعبون ويمزحون ووجد المؤتمر عبارة عن إلقاء الخطب ، والتشدق بما يظهر لكل واحد مزيته فى الخطابة ، والتفصح مع ضعف الرأى ، وعدم التمسك بالشريعة فى الأقوال والأعمال ، فترك الحضور معهم قبل أن ينتهى المؤتمر ، وأقبل على شأنه من زيارة ضرائح أهل الله وشراء الكتب .

ثم توجه إلى الشام لزيارة بيت المقدس ، وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . ثم منه إلى زيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى الذى كان وقتئذ مقيما ببيروت عقب خروجه من دمشق لوجود فتنة الدروز مع فرنسا فزاره .

ثم رجع من طريق البحر على الأسكندرية ، لزيارة ضريح أبى العباس المرسى رضى الله عنه .

ثم رجع إلى القاهرة وشد منها الرحلة الى دسوق لزيارة سيدى إبراهيم الدسوق . وإلى طنطا لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما .

ثم رجع إلى طنجة بعد أن غاب فى هذه السفرة ثلاثة أشهر ، ولزم بيته أيضا ، فكانت وفود الزوار تتوارد عليه من كل ناحية كما هى العادة ، بل زاد الأمر وعظم بانقطاعه عن الخروج . فكان يعمر معهم أوقاته بالمذاكرة بأنواع العلوم والمعارف مع القيام بحقوق المسلمين وقضاء حوائجهم .

بالتوسط والشفاعات عند حكام الدولتين الفرنسية والأسبانية فى المنطقتين السلطانية والخليفية . وذلك بالمراسلة تارة مع بعض أصحابه وأحيانا بالمكاتبة فتقضى المآرب وتقبل الشفاعة مع شدة العداوة له من الجهتين ، والله تعالى غالب على أمره .